المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعًا وعدله اصطناعًا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهًا تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيًا على سنته موفيًا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أستفتح بالذي هو خير: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١} [الحج:١].

أما بعد:

فالتاريخ - كما هو معروف - ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها ومعارفها وهو عقلها الظاهر والباطن وخزانة قيمها ومآثرها وأساس شخصيتها الغائرة في القدم والممتدة مع الزمن وللحبيب محمد ﷺ سيرة لمّا تستكشف أعماقها ولخلفائه الراشدين تاريخ حافل عظيم، ولأمته تاريخ يزهو على تاريخ الأمم والشعوب والدول، فعلينا أن نستفيد من هذا التاريخ العريق ونستخرج منه الدروس والعبر والمواعظ والسنن، ونستوعب فقه الحضارات، ونستلهم من القصص القرآني، والهدي النبوي والبعد التاريخي، رؤية شاملة لنهضة أمتنا بما يتلاءم مع حاضرنا كي تقوم بدورها الحضاري المنشود في هداية الناس، ويتأكد للقرون الباقية من عمر الدنيا أن رسالة الإسلام الخالدة التي بعث بها الحبيب محمد ﷺ لم تفن ولن تفنى وأن القرآن الكريم هو كلمة الحق الباقية إلى يوم الدين، وعلينا أن ننظر بعيوننا في أمورنا قبل أن نحتاج إليها لكي نبكي بها طويلاً.

وعندما يقول الناس: فلان فقد ذاكرته، عرفنا أنه على عتبة الجنون، فما بعد الذهول عما كان إلا العجز عن مواجهة ما يكون.

وعندما يقول الناس فلان ليس له مهاد يبنى عليه ولا تقاليد ينبعث منها، ولا تراث يستمد منه، عرفنا أنه زنيم، يرتجل سيرته، ومسلكه دون أساس ولا مقياس، وذاك ما عناه شوقي في قوله:

مثل القوم نسوا تاريخهم ::: كلقيط عَيَّ في الحي انتسابًا
أو كمغلوب على ذاكرة ::: يشتكي من صلة الماضي انقضابًا

ونحن المسلمين أبناء تاريخ طويل عريض، ربما بدأت رسالتنا، مع بعثة إمام الأنبياء النبي العربي محمد! ولكن هذا النبي القمة بين أن الإسلام رسالة الأنبياء كلهم، بيد أن جماهير غفيرة زاغت عنه، وقامت في الأرض دول مرهوبة تعبد أوهام الخرافة والسلطة وتبتذل خصائص الإنسان العليا بين يدى صنم من الحجارة أو صنم حى من أبناء آدم تلقب بفرعون أو بقيصر أو بشتى الألقاب الخادعة.. ومحمد نبي الله ﷺ هو الإنسان الوحيد الذي هتك سدول الباطل، وساق الجماهير إلى معرفة الله الواحد، واستنقذها بقوة من فتك القوى الشريرة.. وله ﷺ سيرة لما تستكشف أعماقها، ولأمته تاريخ حافل غريب لا أدرى لماذا عومل بالطريقة التي عومل بها؟ إنه في نظرى مجهول الحقائق مخبوء الأسرار، ولا أحسب أمة في الأولين والآخرين أفقر إلى معرفة تاريخها من أمتنا الإسلامية!! {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} [الأعراف: ١٠٠]، وقوله:{ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ} [السجدة: ٢٦]، إن ما وقع أمس لا يعنى أصحابه وحدهم! يجب علينا أن نكترث به، ونفيد منه، ونوازن ونحكم، وإلا دفعنا ثمن جهالتنا من دمائنا واستقرارنا.. وقد أبان القرآن الكريم أن هناك عقلا يتكون من التجربة، ومن السير في الأرض، ومن الرحلة إلى الماضي! وبين أن الإنسان الذي تقوم

معرفته على قراءات سريعة، وأحكام نظرية، أضعف حسا من إنسان له معاناة في الدنيا وتجارب مع الناس.. هذا العقل المتولد من المدارسة والمعاناة، هو الذي يشير إليه القرآن الكريم عندما يقول:{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾} [الحج: ٤٦]، وقد تساءل القرآن الكريم مستنكرا حال قوم يمرون بآثار الماضين الهالكين، ثم لا يرعوون:{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾} [الفرقان: ٤٠]. ومن هنا نجد أن دراسة التاريخ فريضة دينية، وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية، بل إنني - بعد التأمل في تاريخ المسلمين القريب والبعيد - أشعر بأنها ضرورة بقاء؟ وسياج لحياتنا ورسالتنا، إذا كنا حريصين على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا..

ونهضة الشعوب من عوامل نجاحها الالتفات إلى ماضيها لخدمة حاضرها واستشراف مستقبلها.

فنحن في حاجة إلى من ينشط ذاكرة الأمة العربية والإسلامية وأن يردها في حاضرها إلى ماض حافل بصور المجد والجلال، وأن يهديها، بالموازنة، إلى عوامل الضعف التي أنهكتها.

ويجب أن نعلم أن الذاكرة التاريخية للأمة هي التي تحميها من الانهيار وأمة بدون تاريخ مثل شخص فقد الذاكرة تماماً، ونحن للأسف ذاكرتنا التاريخية مشوّهة، وذلك لأننا لا نحسن استدعاء التاريخ، ولا نحسن الاستفادة منه في حماية الحاضر وتحقيق الأمل في المستقبل؛ فالتاريخ في حقيقته هو علم الحاضر والمستقبل. ونحن نحاول أن نلجأ إلى التاريخ مع أننا في الواقع نهمل التاريخ. فينبغي أن نعلم أن التاريخ هو صورة للعهود والحقب الماضية، وهذه

الصورة تكون صادقة كلما كانت واضحة القسمات بيّنة السّمات.

ولكن كيف ترضى أمةٌ هي خير أمةٍ أخرجت للناس، بمن يمحو ذاكرتها، وذاكرة شعوبها، ويلغي تاريخها ويطمس مجدها؟!

والتاريخ فن مشوق، وقد عرض الله سُبحَانَهُ وَتَعَالى في كتابه قصص السابقين، وتحدث لرسوله وللمؤمنين عن تاريخ الأقوام السالفة، فقال سُبحَانَهُ وَتَعَالى:{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣]، وقال جل ذكره:{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١].

وقصّ رسول الهدى ﷺ التاريخ، وتكلم عن الأقوام الهالكة وعن المؤمنين وعن الكافرين، والتاريخ الإسلامي بديع له جوانب مضيئة.

وفي الحقيقة للتاريخ فوائد عظيمة جدًّا، لو تأملنا فيها لكان ارتباطنا بتاريخنا واتصالنا به واطلاعنا عليه وقراءتنا له واستنباطنا منه أكثر بكثير مما هو حال كثير منا، وعلى وجه الخصوص حال كثير من شباب الأمة، الذين ربما كانت لهم مطالعات واجتهادات في تحصيل بعض العلوم، وبعض تخصصاتها أدنى أهمية من التاريخ، ومن فوائد التاريخ في حياة الأمة الفائدة التربوية من تاريخ الرسل والأنبياء والصحابة والأئمة، ومعرفة وإدراك السنن الإلهية،وهذه السنن هي التي تحكم حياة الناس وقيام الدول وزوالها، وفلاح الناس وخسرانهم، كل ذلك مضبوط بهذه السنن.

والتاريخ يصدق هذه السنن التي جاءت في النصوص الشرعية، وكما قال جل وعلا:{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾} [آل عمران: ١٣٧]، وقال جل وعلا:{فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

ودراسة التاريخ له من الفوائد العلمية الجديرة بأن يفرد الحديث عنها ويطول؛ لأن كتب التاريخ لا تشتمل على التاريخ وحده، بل تجد كثيراً من كتب التاريخ يضم في ثناياه معلومات ومسائل تتعلق بالحديث والفقه واللغة والاجتماع، ونحو ذلك من أمور يطول ذكرها.

ومن فوائد التاريخ معرفة الأحوال العامة في حياة الناس، وأحوالهم ومعاشاتهم واهتماماتهم، وكل ما يرسم صورة واضحة عن طبيعة المجتمعات في تلك الفترات الزمنية أو التاريخية.

ولا يمكن لقارئ أو دارس التاريخ أن يغفل الاستفادة من التجارب والخبرات في الحياة.

فالتاريخ يقدم عصارة تجارب الأمم، وخلاصة الخبرات الإنسانية في أمور الحياة الدنيوية، مما لا يتعارض مع الأحكام الشرعية، بحيث يمكن للمسلمين إذا قرؤوا تاريخ تلك الأمم كيف أسست بنيانها! كيف أقامت بعض معالم حياتها! كيف كونت أسس حضارتها في بعض الأمور الحياتية! فإن هذا الباب يمكن أن يضيف إلى المسلمين فوائد عظيمة جدًا.

والتاريخ يظهر لدارسه حقيقة الأمم في ظلال الإسلام، وكيف عاشت في ظلال وارفة من العدل والسلم والرخاء.

ودراسة التاريخ تتيح لنا دحض الشبهات والرد على المفتريات والمقالات الباطلة، وظهر ذلك جليًا عندما أظهر بعض اليهود كتابًا، وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة، وإن خط علي بن طالب فيه، فعرضه رئيس الرؤساء ابن المسلمة على أبي بكر الخطيب، فقال: هذا مزور، قيل: من أين لك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية

أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان قد مات يوم الخندق، فاستحسن ذلك منه واعتمده وأمضاه ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره [1].

ولولا معرفة الخطيب البغدادي بالتاريخ ودراسته له لما استطاع أن يكتشف هذا التزوير والتحريف المتعمد.

ومعرفة الحركة العلمية في كل عصر ومصر تحتاج إلى قراءة متأنية للتاريخ لأن في كل زمان يؤرخ لأعلامه العلماء والمذاهب التي وجدت فيه، والكتب التي صنفت، والمسائل التي بحثت، والمناظرات التي وقعت، وإذا بك تعرف نشأة العلوم والعلماء البارزين في كل علم من العلوم، والإضافات التي وجدت في هذه العلوم.

ومن فوائد دراسة التاريخ نقض البدع والخرافات والمحدثات المنحرفة، ونقض البدع والخرافات وكثير من المحدثات التي يريد أن يقررها بعض الناس، وكثير من الخرافات التي يعتقدها بعض الناس، يكون عن طريق البحث عن تاريخها.

ولا بأس أن نروي هذه الطرفة التي تشيع عند الناس: وهي أن رجلين من العاطلين الباطلين، لم يكن عندهما عمل ولا مال، فعمدا إلى كلب فذبحاه ثم دفناه ثم أقاما عليه قبراً وجعلا له بناءً، ثم قالا: هذا قبر فلان الولي، ثم دَعَوا الناس له، وصارا هما السادنان لهذا القبر المزعوم، فجاءتهما الوفود من الناس يهدون القرابين، ويدفعون الأموال، فلما اختلفا في قسمة الأموال قال أحدهما: وحق الشيخ

(١) انظر: المنتظم ٨ / ٢٦٥، والتذكرة ٣ / ١١٤١، وطبقات السبكي ٤ / ٣٥، والإعلان بالتوبيخ ١٠ - ١١، ومعجم الأدباء ٤ / ١٩.

فلان، يقسم بهذا الولي المزعوم، فقال الآخر: نحن دفناه معاً!

فعندما تبحث في التاريخ تجد مثل هذه الأمور المتعلقة بتعظيم الأضرحة، هل كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام؟ الجواب: لا، ابحث في التاريخ هل كانت في عهد الصحابة؟ متى نشأت؟ في أي مكان؟ فتستطيع بواسطة التاريخ أن تدحض مثل هذه الأمور، وأن تنقضها.

ومعرفة التاريخ تمكن الأمة من إظهار الحقائق وكشف المغالطات لأن التاريخ يسجل كل الوقائع، وكما يقولون في عبارة جميلة وشائعة: قد تخدع كل الناس بعض الوقت، وقد تخدع بعض الناس كل الوقت، لكن أن تخدع كل الناس كل الوقت فغير ممكن.

كما أن قراءة التاريخ تعيد الأمل وبث الحماسة في نفوس المسلمين، وذلك عندما يرتبطون بتاريخهم وأمجادهم وقادتهم وعلمائهم وأمرائهم وملوكهم، عندما يرون هذه الصفحات المشرقة، وعندما يقفون على هذا التراث العلمي الزاخر، وعندما يجدون هذه المؤلفات التي ربما لا يستطيعون حصر أسمائها فضلاً عن أن يقفوا عليها أو أن يقرؤوها.

هذا كله يجعلهم على أمل وعلى يقين - إن رجعوا إلى دين الله عز وجل - أن يجددوا هذا التاريخ، وأن يعيدوا تلك الأمجاد، وكما يقال في أمثال العرب: ما أشبه الليلة بالبارحة.

وكما يقال عند غيرهم واستخدمه العرب أيضاً في الوقت المعاصر: التاريخ يعيد نفسه.

إذاً يمكن أن يعيد التاريخ نفسه إذا استجلينا منه هذه الفوائد، وكما قيل: أمة لا تعرف ماضيها لا تستطيع أن تخطط لمستقبلها.

اقـــرأ التـــاريخ إذ فيـــه العـــبر ::: ضاع قوم لـــيس يـــدرون الخـــبر

إن المعركـة الدينيـة والسياسـية والثقافيـة والتربويـة الحاليـة مـع الغرب تدرك أهمية التاريخ في صنع شخصية الأمة، والمحافظة على ضميرها وذاتها وكينونتها.

لقد صار العلم بالتاريخ - بعد معرفة ما سبق - فرض كفاية على الأمة الإسلامية.

وأصبح فرض عين على المشتغلين بالثقافة وتوجيه الأمة.

وصار الرأي العام الإسلامي مسؤولا أمام الله في أن يكون على أشد ما تكون اليقظة لأهمية هذا التاريخ وقد وقع المنهج التربوي بكامله فريسة في يد المستعمر الغربي كما لم يحدث من قبل.

إن الخطر القادم على الفرد والمجتمع من هذه الثغرة خطر وجود، لأن إسقاط تاريخ الأمة - وهو ما يعمل من أجله المشروع الغربي يساوي فقدان ذاكرة الفرد، وماذا يساوي الفرد الذي فقد الذاكرة.

إن تاريخنا هو ذاتنا في الماضي، وهو قلعتنا في الحاضر، وهو زادنا نحو المستقبل.

إن من حقنا أن ننظر إلى تاريخنا بعين الفاحص، ونقد المحقق، ووعي المتبصر، ولكن من واجبنا أن تكون عيننا الأخرى على مؤامرات الغزو الثقافي، ومن أهم أهدافه اقتلاعنا من جذورنا الإسلامية عن طريق تشويه تاريخنا الإسلامي.

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *